التأصيل المعرفى لمفهوم القومية

■ د.النعمي السائح العالم*

تمهيد:

يعد مفهوم القومية من المفاهيم المستحدثة ،والتي كثر الجدل حولها، ونشأت من حوله عدة أراء، واتجاهات ،فكرية، وسياسية، وإيديولوجية، واختلط ببعض المفاهيم والمصطلحات وترسخت حوله عدة نظريات متخصصة ،واشتقت له عدة تعريفات متباينة ،ووضعت له مداخل نظرية لدراسته،لهذا سنحاول في هذا البحث أن نستجلي هذا المفهوم، ونبين ارتباطه وعلاقته بجملة من المصطلحات وأهم المداخل التي تناولته لنصل إلى تعريف إجرائى يخدم أهداف البحث ،ومدخل نظري مناسب لطبيعة البحث، وذلك من خلال عدد من المحاور.

مشكلة البحث:

تتمحور إشكالية البحث في غياب مفهوم واضح لمفهوم القومية ،وغياب المعرفة بالأسس والمعايير التي تحكمه وأهم المداخل النظرية لدراسته وتندرج تحت هذه الاشكالية التساؤلات التالية:

1. ماهي الرؤية المعرفية المعاصرة لمفهوم القومية؟
2. ماهي القواسم المشتركة بين مفهوم القومية والمفاهيم الأخرى؟

أهمية البحث.

لقد أصبحت قضايا القومية من المصطلحات التي تثار بين الفينة والأخرى هنا وهناك داخل أقطارنا العربية ويتغنى بها الزعماء، وصناع القرار مما يستدعي وقفة علمية جادة تؤصل لهذا الموضوع وتحلله، من أجل ايضاح العلاقة بينه وبين غيره من المفاهيم .

* عضو هيئة التدريس بكلية الفنون والإعلام /جامعة طرابلس

أهداف البحث.

يهدف إلى تقديم نظرة واقعية معتدلة ودراسة أكاديمية جادة لهذا الموضوع بعيداًعن التطرف والارتجالية من أجل تقديم تأصيل نظري لمفهوم القومية.

أدوات البحث .

اعتمد الباحث في جمع أدبيات موضوع البحث الحالي على الاسلوب المكتبى وذلك للإلمام بجميع متطلبات الدراسة نظريا حيث تم الاطلاع على الجانب المعرفى من الكتب والدراسات والبحوث ذات الصلة بموضوع الدراسة بشكل عام .

منهج البحث .

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي القائم على جمع المادة العلمية من مصادرها الأولية ومراجعها الثانوية وتصنيفها وتبويبها وغربلتها وتحليلها وصولا إلى إبراز الصورة العلمية المتكاملة لموضوع البحث .

وحتى تتحقق أهداف البحث ،تم تقسيمه إلى المحاور التالية:

المحور الأول : تعريف القومية ومفهومها

يعد مفهوم القومية من المفاهيم الواسعة، فقد أثير الكثير من الجدل حوله في الماضي والحاضر وسيستمر في المستقبل، وذلك لاختلاف الفكر من مرحلة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر ونجد العديد من الكتابات التي حاولت إيجاد مفهوم واضح ومحدد، ورغم الجهود المبذولة بهذا الصدد فإنهم لم يتوصلوا بعد إلى تعريف علمي واضح.

ولغوياً تشتق القومية من المادة اللغوية الأصلية هي ق.و.م، وقوم: قيل اسم للجمع والقوم جماعة من الرجال والنساء جميعاً، وقيل هو للرجال خاصة دون النساء، والفعل الثلاثي من هذه المادة قام، يقال قام فلان على الشيء إذا ثبت عليه وتمسك به، والمقام والمقامة: المجلس. ومقامات الناس مجالسهم أيضاً، المقام الموضع الذي تقوم فيه، ويقال للجماعة يجتمعون في مجلس. [1]

ولعل من أشهر التعريفات التي تناولت القومية، هو التعريف الذي يرى أن القومية هي الرابطة التي تجمع بين أفراد الأمة الواحدة وتشدهم إلى بعضهم وتشعرهم بأنهم متميزون عن غيرهم من الأمم بجملة مميزات ثقافية أو حضارية أو تاريخية أو سياسية.[2]

ومن خلال الاطلاع على العديد من المصادر والمراجع، لوحظ أنه اتفقوا أغلب الباحثين على أن القومية هي شعور جماعة من الناس بما يربطهم من روابط مشتركة من الثقافة والنسب يتميزون بها، ترجع أصولها إلى الماضي ويدفعهم إلى اتخاذ مواقف موحدة في

كثير من المواجهات الرئيسة في القضايا السياسية بالدرجة الأولى وفي الميادين الثقافية بالدرجة الثانية.[3]

باستعراض التعريفين السابقين نلاحظ أن القومية هي رابطة بين أفراد أدت مجموعة من العوامل إلى تجمعهم مكونين أمة وهذه العوامل تختلف من شعب إلى آخر.

ونستخلص من التعريفات السابقة أن مفهوم القومية مرتبط بمفهوم الأمة باعتبار أن القومية جاءت من كلمة قوم، والقوم هم الأمة، فإن هذه الكلمة في اللغات الأجنبية لاتينية المنبت، ترجع إلى كلمة (Nascor) التي اشتقت منها كلمة القومية والقومي، أما كلمة الأمة فنجد أصلها في الفعل اللاتيني (Nasei) الذي يعني في أبسط معانيه فعل الولادة (To be Born). ويقصد به مجموعة من البشر المولودين في رقعة معينة من الأرض ويستوي في ذلك أن تكون مساحة الأرض كبيرة أو صغيرة.[4]

ويرى الباحث أن القومية تختلف من شعب إلى آخر كما أنها تغيرت وتبدلت عبر الزمن، وأن عوامل تاريخية مختلفة دخلت في تشكيل كل أمة، إضافة إلى الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية التي أسهمت في نموها.

كما أن أساس القومية يقوم على وجود روابط مشتركة مثل الثقافة والنسب وغيرها من الروابط، وهي تعبر عن الولاء للجماعة.

ويمكن هنا أن نحدد أوجه الاختلاف حول مفهوم القومية في النقاط التالية:

1 - مصطلح القومية حديث النشأة على مستوى المجتمع والسياسة مقارنة بغيره من المصطلحات المعرفية.

2 - اختلاط الظاهرة القومية في بعض الأحيان مع الظواهر المجتمعية الأخرى قد تكون أقدم منها من حيث النشأة مثل السلطة والدولة.

3 - كتابة العديد غير المتخصصين عن القومية، ما ترتب عن ذلك وجود الكثير من المقالات والكتب غير الجادة.

4 - كما يرجع هذا الخلط والتشويش في فهم القومية إلى أنها كلمة تقوم على واقع اجتماعي سياسي، فالقومية تتسع وتتنوع لتتكيف مع الأوضاع الجغرافية والسياسية والظروف الاجتماعية لكل مجتمع.

5 - أغلب الفلاسفة والكتّاب وضعوا تعريفات لكثير من المصطلحات وفقاً لمصالحهم الذاتية، والأهداف الخاصة بدولهم ومجتمعاتهم المنتمين إليها.[5]

ويصف الكثير من الباحثين القومية بأنها مذهب سياسي Political Doctrine برز

في أوروبا منذ نهاية القرن الثامن عشر على العموم وبداية القرن التاسع عشر على الخصوص، بموجب بروز القومية كمذهب سياسي، انقسمت أوروبا إلى عدة دول تعكس تجانساً جغرافياً عرقياً وتحكمها حكومات تجسد مبدأ الحكم الذاتي، والأصل اللغوي لمفهوم القومية في اللغة الإنجليزية مشتق في الأساس من كلمة الأمة Nation التي تتسم في العادة بخصائص محددة تميزها عن غيرها من الأمم الأخرى.(6)

ولابد أن نبحث عن ماذا تعني الأمة والقومية كواقعة اجتماعية سياسية في فكر الفلاسفة والكتّاب؟ وربما من أهم التعريفات في هذا الشأن تعريف المؤرخ الفرنسي أرنست رينان، فقد حدد مفهوم الأمة على أنها روح أو مبدأ روحي Anation is Soul a Spiritual Principle وهما في الحقيقة شيئان جوهرهما واحد، أحدهما يقوم على الماضي والآخر يتعلق بالحاضر، الأول يقوم على المشاركة الجماعية في ذلك التراث الغني بالذكريات، والثاني يعبر عن الرغبة الفعلية في العيش معاً.(7)

هناك من يرى أن الأساس في تكوين الأمة هو رغبة ومشيئة الشعوب في العيش المشترك، بجانب التراث والتاريخ، إلا أن الباحث يرى في هذا التعريف (الأمة)أنه يفتقر لعناصر أخرى أكثر دقة لتحديد مفهوم الأمة.

في حين يرى العالم الإيطالي باسكال مانتشيني Pasquale Mancini إلى أن المجتمعات القومية هى مجتمعات طبيعية، حيث ميز بينها وبين كثير من التجمعات البشرية الأخرى، كالطوائف الدينية والسياسية والحزبية، إذ جاء في تحديده لمفهوم الأمة أنها مجتمع طبيعي من البشر يرتبطون ببعضهم بواسطة الرابطة الإقليمية والأصل والعادات واللغة، وذلك بفعل الاشتراك في الحياة العامة وفي الضمير الاجتماعي (8)

فالأمة جاءت في التعريف السابق باعتبارها مجتمعاً طبيعياً أي: تكونت كنتيجة طبيعية لمتطلبات الحياة الإنسانية والاجتماعية، وهذا يرجع للغريزة الفطرية التي جبل عليها بنو البشر، ويؤخذ على هذا التعريف أنه لم يحدد ماذا يقصد بوحدة الأصل، الأصل العرقي أو الأصل التاريخي.

وقد عرّف هيوم Hume الأمة بقوله إن الأمة لا تعني أكثر من جماعة من الأفراد الذين تجمعوا بإرادتهم، واكتسبوا نتيجة هذا التجمع بعض السمات والمزايا في العموم.(9)

وهنا يرى الباحث أن هذا التعريف لم يحدد الأسباب الدافعة لهذه الإرادات لتكوين أمة.

أما جون ستيوارت ميل فيرى أن أساس الأمة هو اتحاد جزء من الجنس البشري فيما بينهم، بواسطة المشاركة الوجدانية، أو العواطف العامة، تلك التي لم توجد بينهم وبين

الآخرين، والتي تجعلهم يتعاونون مع بعضهم البعض بطواعية ورغبة تلقائية أكثر من تعاونهم مع الآخرين، ويرغبون في الخضوع لحكومة واحدة، كما يرغبون في أن تُكوَّن هذه الحكومة بأنفسهم، أو بجزء منهم، على سبيل التحديد.[10]

يرى هذا التعريف أن الامة مستمدة من رغبة جزء من الجنس البشري يشتركون في العواطف العامة في تكوين حكومة بأنفسهم، أي يوضح العناصر التي تربط أفراد أمة معينة في إطار تكوين الدولة القومية.

ولا يمكن تجاهل في إطار تحديد مفهوم الأمة والقومية وجهة نظر المدرسة الماركسية في بداية عهدها كانت تتناول الأمة والقومية من وجهة نظر اقتصادية صرفة كنتيجة لتمسك النظرية الماركسية الشديد بفكرة التطور المادي للتاريخ وصراع الطبقات، الأمر الذي جعل معظم كتاباتهما «ماركس وانجلر» حول القومية تنظر للأمة كظاهرة اقتصادية مؤقتة مرتبطة بمرحلة تاريخية محددة من مراحل التحول المادي للتاريخ نتيجة صراع الطبقات.[11]

فقد اضطر الاتحاد السوفييتي (سابقاً) للخروج عن المبادئ الأساسية للنظرية الماركسية التقليدية والاعتراف بالقوميات، ولم يستطع الحزب الشيوعي الذي أسسه ويقوده أن ينكر وجود القوة القومية، التي ظهرت واضحة وجلية في الدولة السوفييتية منذ أن انبلجت الثورة البلفشية الكبرى في أكتوبر سنة 1917، وظفرت بحكم الدولة الجديدة التي عملت على بنائها على أسس دستورية اتحادية قائمة على الاعتراف بالقوميات المختلفة والمساواة بينها.[12]

وقد عرف ستاليس الأمة بأنها جماعة مستقرة تكونت من لغة وإقليم وحياة اقتصادية وسيكولوجية، تشكل بوضوح وحدة ثقافية مشتركة.[13]

ويرى الباحث أن هذا التعريف يشمل أغلب العناصر المتفق عليها من قبل الكثير من الباحثين. ويقول (رسل) عن الأمة هي تلك الجماعة التي تتكون من عاطفة Sentiment وغريزة Instinct عاطفة التشابه وغريزة الانتماء إلى جماعة أو قطيع Herd واحد.[14]

إن العنصرين المذكورين في التعريف لا يكفيان لتكوين أمة، وربما يعدان أساسيين للأسرة والقبيلة. وخلاصة القول إن معظم المفكرين قد ضغطوا على عناصر معينة وجعلوها جوهر الأساس للأمم والقوميات، ومن هؤلاء المفكرين أمثال فيخته Fichte ومازيني Mazzini وبايرون Byron على وجه الخصوص، الذين باسم مطلب إدراك الذات Self Realization رأوا في اللغة والثقافة القومية جوهر كفاح الإنسان فيعرف

(فيخته) رائد القومية الألمانية الأمة بأنها تلك الجماعة التي تتكلم لغة أصلية واحدة).[15] (فقد رأى هؤلاء الكُتَّاب أنه يجب على شعب كل مجموعة لغوية أو ثقافية أن يُكَوِّنوا وحدة سياسية من أجل الوصول لبناء المجتمع القادر على تحقيق الحد الأدنى من الحرية والسعادة لتلك الجماعة بالذات.[16]

ويرى سليمان الغويل أن القومية في أدق معانيها هي تعبير عن تلك العلاقة التي تربط بين أبناء الأمة الواحدة، فهي تعبير عن الشعور أو العاطفة التي تقوم على وحدة الانتماء والمصير.[17]

ويستنتج الباحث أن معظم المفكرين قد ضغطوا على عناصر معينة وجعلوها جوهر الأساس للأمم والقوميات، وهي تختلف من شعب إلى آخر ومن عصر إلى آخر ومن مجتمع إلى آخر وحسب العناصر التي أسهمت في تكوينها، فهي تتسع وتتنوع لتتكيف مع الأوضاع الجغرافية والسياسية والظروف الاجتماعية لكل مجتمع.

ورأى الباحث ضرورة التعرض لمفهوم الوطنية باعتبار أن هناك الكثيرين الذين يرون أنها ترتبط بمفهوم القومية، ويفترض أنهما وجهان لعملة واحدة أو شكل من أشكال القومية، ارتبط مفهوم الوطنية بالوطن وهو رقعة الأرض التي يعيش عليها المواطن، ويرتبط بها ويكون له فيها تاريخ وذكريات.[18]

وأن الوطنية هي ذلك الشعور الباطني بالارتباط والاعتزاز به، هي عاطفة حب الوطن أو تعلق الإنسان بوطنه، فهي غريزة طبيعية تدفع الإنسان إلى حب الأرض التي تعيش عليها والتعصب لها والذود عنها والتضحية في سبيلها، أما القومية فهي رابطة اجتماعية طبيعية بها ينتسب الفرد لأمة معينة وهذا الانتساب لا يتحقق فعلاً إلا بإحساس الفرد بالانتماء للأمة والولاء لها.[19]

وتعبير الوطن يختلف باختلاف المراد به، إذ قد يعبر عن قطعة صغيرة من الأرض كالقرية أو المدينة مثلاً التي ينشأ عليها الإنسان، وهذا المفهوم اللغوي والاجتماعي للوطن، وقد يكون أوسع من ذلك بحيث يشمل عدة قرى ومدن، ولكنه يظل جزءاً من إقليم الدولة، وهذا هو المفهوم الإداري أو المحلي للوطن، وقد يراد به إقليم الدولة بكامله، وهو المفهوم السياسي للوطن حيث يتمتع بالمواطنة كل من يحمل جنسية الدولة، وهنا يختلط مفهوم الوطن بمفهوم إقليم الدولة [20] وهناك الوطن القومي وهو الوطن المرتبط بأرض الأمة، وهو قد ينطبق على إقليم الدولة إذا كانت دولة قومية، وقد يشمل أقاليم لعدة دول –الدول العربية مثلاً.[21]

فالشعور بحب الوطن والمواطنين يبدأ –إذن – بالبيت الذي تنبت فيه فطرياً بذرة

الوطنية الأولى، ثم يدرك الصبي أن هناك آفاقاً أوسع من أفقه، وأنه يعيش فيها أناس مرتبطون بسكان قريته أو مدينته، ولهم ظروف حياتهم نفسها، فيجد نفسه تلقائياً يتعلق بهم ويعطف عليهم، ولعل للأهل في البيت والمربين في المدرسة دور كبير في إحياء الشعور الوطني والقومي لدى الطفل، حتى أصبح شاباً ودخل معترك الحياة في المجتمع ونمت مداركه وثقافته، وأصبح هذا الشعور الوطني والقومي عنده عقيدة راسخة). [22]

وهناك من لا يرى فرقاً بين الوطنية والقومية حيث ذهب إلى اعتبار الوطنية شكلاً من أشكال القومية، ومن هؤلاء الكتّاب روبرت ماكيفر Maciver وشالرز بيدج Page، فالقومية عندهما تقوم في أحد أشكالها على فكرة الارتباط بأرض الآباء والأجداد أو أرض الإقامة الفعلية، وعندما توحي هذه الفكرة بالرغبة في الإيثار وتكريس النفس من أجل الوطن يجدر تسميتها بالوطنية، وكثيراً ما تتخذ دعوى الوطنية أو الشعور بالحماس الوطني غطاء للرغبة والأنانية، [23] أو الاتجاه المحافظ المتزمت أو كبرياء الطبقة وغطرستها، أو الحقد والعداء وكراهية الأمم الأخرى، غير أن الوطنية الحقيقية في ذاتها كعاطفة إنسانية هي إحساس وجداني رفيع، يقوم على الشعور العميق بحب الوطن، وهي التي تلهم الأفراد تكريس أنفسهم من أجله وتقديم أعظم الخدمات له والتضحية في سبيله. [24]

ويرى ساطع الحصري أن الوطنية هي حب الوطن.. والقومية هي حب الأمة.. الوطن قطعة من الأرض، والأمة جماعة من البشر. [25] ويرى الباحث أن مفهوم الوطنية لا يختلف في الحقيقة عن مفهوم القومية كل هذا الاختلاف، ذلك لأن حب الأمة يتضمن في الوقت نفسه حب الأرض التي تعيش عليها الأمة

ومن الواضح أن الوطنية والقومية عند الحصري لهامفهوم واحد، حيث يجمع بين حب الأرض وحب الأمة، ويتضح مما سبق أن مفهوم الوطنية مشاعر ينتج عنها إخلاص وولاء وشعور بالانتماء من قبل الفرد تجاه وطنه، يدافع عنه مهما كانت الأسباب والظروف ويخلص الباحث مماسبق إلى أن التنوع في هذه التعريفات قد وضع إشكالية كبيرة في صياغة مفهوم محدد لمفهوم القومية يمكن الاعتماد عليه كأساس للانطلاق في دراسة قومية ما حيث يظهر المنحني الذاتي أو الخصوصية القومية في كل ماذكر من تعاريف ويرى الباحث أن مفهوم القومية يعبر عن حالة عقلية لجماعة من البشر تؤلف بينهم صلة اجتماعية عاطفيه تتولد من الاشتراك في الوطن والجنس واللغة والثقافة والتاريخ والحضارة والآمال والمصالح المشتركة ويكون فيها ولاء الفرد للدولة والقومية واجب أسمى .

المحور الثانى : عناصر القومية

لقد عرفت فترة الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى عدداً من المفكرين الذين نشروا كثيراً من مؤلفاتهم تتحدث معظمها عن عناصر القومية العربية أكثر مما توضح مفهوماً قاطعاً للقومية العربية، مثل كتاب الوعي القومي لقسطنطين زريق عام 1938، ودستور العرب القومي للشيخ عبد الله العلايلي 1938 وآراء وأحاديث في الوطنية والقومية لساطع الحصري عام 1944، وكتاب قضية العرب لعلي ناصر الدين عام 1946.

أما عن عناصر القومية، فقد اتفق معظم الكتاب على أنها اللغة والتاريخ والتقاليد والمصالح، في ذكريات الماضي ونزعاته، والحاضر وآمال المستقبل، وإن كان البعض تحدث عن عامل العِرْق والسلالة، وآخرون عن عامل الحضارة والتاريخ المشترك، وفريق ثالث تحدث عن دور البيئة.

فساطع الحصري يرى أن عناصر القومية هي اللغة والتاريخ: ثم وحدة الأصل والمنشأ، والعواطف والعادات والتماثل، وحددها قسطنطين زريق بأنها اللغة والتقاليد والمصالح المادية المشتركة.[26]

ومن خلال ما سبق، يتضح عدم اتفاق بين الباحثين في تحديد عناصر القومية، فهم يختلفون في تحديد أهمية وأولوية هذه العناصر وفقا لمايلى.

أولاً: العناصر الموضوعية للقومية

تتعلق بمشاعر وإرادة الأفراد اتجاه بعضهم البعض، أو اتجاه الجماعة والأمة ككل، وتشمل اللغة والدين والإقليم والتاريخ المشترك والتقاليد والثقافة المشتركة والمصلحة الاقتصادية المشتركة.

■ اللغة

تعد أداة للتخاطب والتفاهم بين الأشخاص، وبها يمكن التمييز بين الجماعات، ويعطي الباحثون أهمية ملحوظة لعنصر اللغة كمعيار أساسي للقومية خاصة العرب والألمان.

كما أن أصحاب اللغة الواحدة يعاملون الشعوب الأخرى التي تختلف عنهم في اللغة على أساس قاعدة نحن وهم، أو يعاملونهم معاملة الغرباء، وأيضاً اللغة تعد دليل وجود ماضٍ مشترك وأصل مشترك، مثل الشعوب الاسترالية ودول أمريكا اللاتينية.

وهناك فريق آخر يقلل من أهمية عنصر اللغة باعتباره معياراً أساسياً لتحديد الانتماء القومي وذلك أنه يوجد عوامل أخرى لا تقل أهمية عن اللغة في تحديد الانتماء القومي لأن العديد من الأمم يتكلم أبناؤها أكثر من لغة مثل الأمة السويسرية.

وتجدر الإشارة إلى أهمية عنصر اللغة في تحديد الانتماء القومي شيء لا يمكن تجاهله، ولا يمكن إنكار أهمية العناصر الأخرى.

■ **العرق**

وهذا العنصر الثاني للقومية ويرتبط برابطة الدم نظراً لأن أصل الأمة هو الأسرة فالعشيرة فالقبيلة، وعليه يفرق أنصار عنصر الأصل المشترك في القومية بين مفهوم الدولة التي ليس من الضرورة أن يتوفر فيها عنصر العرق أو الأمة ذات السلالة الواحدة، فالفيلسوف الألماني (فيخته) مثلاً يؤكد على نقاء الجنس الألماني وأصالته وذهب الإيمان بنقاء الجنس الألماني وأصالته من الفلاسفة والكتاب إلى [27] السياسيين خاصة في عهد هتلر حيث أعلنت ألمانيا النازية عن تأييدها وتحمسها لعامل الأصل المشترك للأمة الألمانية.

إن التاريخ يوجد فيه الكثير من الدلائل التي تشير إلى وجود أصل مشترك لبعض القوميات، إلا أن الهجرات المتتالية بسبب القحط أو التجارة أو لأسباب دينية أو عسكرية أو اجتماعية التي ترتب عنها اختلاط الدم والسلالات العرقية، مما ينفي الادعاء بوجود نقاء كامل لعديد الأجناس البشرية.

والجنس كعامل يعطي للقومية صفة تعرف بالقومية العرقية Ethno - Nationalism وهي تشكل خطراً على وحدة واستمرارية الكثير من الدول النامية والمتقدمة، ولأن القومية العرقية تتعلق بجنس أو ثقافة أو إقليم أو لغة ضمن دولة ما، فإنها غالباً تؤدي إلى حركات انفصالية عن الدولة نتيجة لوجود اختلافات أثنية، وهي تطالب إما بالاستقلال الذاتي أو الاستقلال التام عن الدولة الأم.

العرق لا يرتكز على وحدة الأصل المشترك أو الجنس، بل يشمل جوانب أخرى مثل التجانس العقلي، الفكري والروحي.

والدراسات الحديثة قللت من أهمية رابطة الدم بسبب اختلاط الأنساب نتيجة الهجرات المتتالية وأعطت أهمية لوحدة التاريخ.

■ **الدين**

هناك شواهد تاريخية تدل على الدور المهم الذي لعبه العامل الديني في بث روح القومية عبر العصور، وخير دليل على ذلك حركة الإصلاح الديني التي كانت في أوروبا في بداية القرن السادس عشر، التي برز من خلالها تأثير العامل القومي على الحروب الدينية في خارطة الأقاليم المسيحية، التي أكدت على سيطرة عوامل قومية مثل اللغة والجنس والإقليم، فالمسيحية لم تعد دولة واحدة لشعب واحد ذي ثقافة واحدة، بل أصبحت عدة

دول تتمتع بالاستقلال الذاتي، كما أن لحركة الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر وظهور المذهب البروتستانتي دوراً كبيراً في انقسام الكنيسة إلى اتجاهين إحداهما كاثوليكي والآخر بروتستانتي، إضافة إلى انقسامات [28] أخري الأمر الذي أدى إلى بروز كيانات كاثوليكية وأخرى بروتستانتية وكيانات متنوعة قامت على أساس التناقض مثل انجلترا وايرلندا.

نذكر أيضاً الدين الإسلامي ودوره المؤثر والفعال في مواجهة الغزو الصليبي والاستعمار قديماً وحديثاً، ومنذ بداية انتشاره على تنمية الروح الوطنية بين الأفراد المسلمين، ومن أشهر الحركات الدينية التي ساعدت في تقوية مشاعر القومية حركة محمد إقبال التي أدت إلى انفصال الهند عن الباكستان في عام 1948. وحركة محمد عبده في مصر ضد الاستعمار البريطاني.

■ **الإقليم**

هو ركن رئيس من أركان الدول القومية، والإقليم يشكل الإطار القانوني الذي تمارس فيه الدول سيادتها، ولكي تكون هناك قومية لابد من وجود إقليم مهما كانت طبيعته، وأن طبيعة الإقليم مهما كان نوعها طوبوغرافية استراتيجية كانت أو اقتصادية فإنها تعطي صفات متميزة لقوميات معينة عن أخرى، وأن انعدام وجود عنصر الإقليم يجعل الحديث عن الأمة كلاماً غير كامل، وبالنسبة لحدود الإقليم إما أن تكون طبيعية مثل الجبال أو الأنهار، بغض النظر عن امتداد الأمة خارج الحدود الطبيعية، أو تمتد الحدود لتشمل كل من ينتمي إلى الأمة بغض النظر إلى الحدود الطبيعية.

ومثال على ذلك رأي المدرسة الألمانية للقومية في إعطاء الأولوية لعنصر القومية في تحديد إقليم الدولة، وتطبيق هذه النظرة من قبل النازية خلال فترة الثلاثينيات والأربعينيات، بهدف توسيع إقليم الدولة الألمانية ليشمل كل المتكلمين باللغة الألمانية، وفي المقابل تأخذ العديد من دول العالم الثالث وخاصة الإفريقية، بفكرة الحدود الجغرافية فمنظمة الوحدة الإفريقية أكدت في ميثاقها على ضرورة المحافظة على الحدود الجغرافية التي وضعها الاستعمار خوفاً من الحروب العرقية.

ويوضح أصحاب تغليب الحدود الجغرافية للإقليم وجهة نظرهم على عدم أهمية عامل اللغة أو العرق في رسم حدود الدولة، فالولايات المتحدة وبريطانيا وكندا [29] وأستراليا ونيوزلندا وجنوب إفريقيا لم تمثل أمة واحدة بالرغم من أنهم يتكلمون لغة واحدة وهي اللغة الإنجليزية، والإقليم قد يشمل أمة واحدة أو عدة قوميات متصارعة في دولة واحدة، ويمكن القول إن الإقليم سواء وفر حماية طبيعية لأمة معينة أم لم يوفر فيعتبر حب الأفراد للإقليم الذي هو تجسيد لتقاليد حضارة مشتركة من مؤشرات الشعور القومي للأفراد.

■ **التاريخ المشترك**

إن أغلب القوميات الحديثة ما هي إلا امتداد لحضارات قديمة كان لها دور فاعلٌ في التاريخ الإنساني، والتفاعل بين الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لجماعات بشرية عبر التاريخ الإنساني، أدى إلى توفير أرضية صلبة لظهور قوميات حديثة تتميز بتراثها وأصلها التاريخي مثل القومية الصينية والقومية العربية والإيطالية واليونانية والفارسية.

وحق الأمم في الافتخار بتاريخها يظهر من خلال التركيز على الذكريات التاريخية الخالدة والمناسبات التي تجسد الاعتزاز بالماضي بما فيه من متعة وألم، كما تقوم الأمم بتدريس تاريخها وتراثها في المدارس والجامعات، لغرض تنشئة الأجيال القادمة على الاعتزاز بالتراث والتاريخ المشترك، ولكن بعض الدول تصل درجة الاعتزاز بتراثها إلى درجة الغرور متناسية بذلك الاهتمام بالحاضر والمستقبل، غير أن البعض يرى إمكانية التغاضي عن عامل التاريخ المشترك كعنصر من عناصر القومية، والدليل على هذا وجود دول حديثة مثل الولايات المتحدة وكندا، حيث إنها قامت وازدهرت دون أن يكون لها تاريخ مشترك.

■ **التقاليد والثقافة المشتركة**

إن تمايز التقاليد والثقافات عن بعضها يرجع إلى اختلاف عوامل التاريخ واللغة والدين للأمم المختلفة، فتوفر عوامل اللغة والدين والتاريخ المشترك والإقليم يجعل الأمم تمتلك تراثاً ثقافياً يميزها عن بعضها البعض، فالأمة العربية لها تقاليد وثقافة مشتركة تمثل عوامل اللغة والدين والتاريخ المشترك تميزها عن غيرها من الأمم.[30]

فتطور الحضارات البشرية عبر الزمن والاهتمام المتزايد بالجوانب المادية لا يعني إهمال التقاليد التي تربط الماضي والحاضر، والتقاليد تورث جيلاً بعد جيل؛ لأن الحاضر والمستقبل هما جزء من الماضي، والأمم التي لها تقاليد وثقافة مشتركة تحاول حماية تراثها بشتى الوسائل الممكنة، ونشر هذه التقاليد والثقافة إلى المجتمعات الأخرى عن طريق الإقناع أو الإجبار، وخير مثال على ذلك ما قامت به الدول الاستعمارية من أجل نشر تقاليدها وثقافتها في الأمم التي كانت تحت الاحتلال، وهذا ما يعرف بالتبعية الثقافية.

وبعض الباحثين قللوا من أهمية عنصر التقاليد والثقافة المشتركة اعتماداً على أن العالم المعاصر يمر بحالة تداخل تاريخي نتيجة ثورة عارمة في الاتصالات التي سهلت عملية الاتصال، وبالرغم من تشابه الثقافات، غير أن ذلك لا يقلل من وجود تقاليد وثقافات مشتركة لأمم متميزة، وفي نفس الأمم التي تتبنى ثقافة غريبة عن عاداتها

وتقاليدها بدلاً من ثقافتها التي تعبر عن هويتها الحضارية والثقافية، فتصبح تدور في دائرة مفرغة لا تستطيع التغلب على مشاكل الحاضر وتوقعات المستقبل بعكس الدول التي تعتز بتقاليدها وثقافتها.

■ المصلحة الاقتصادية المشتركة

كانت بداية الاهتمام بهذا العنصر على يد الماركسيين في القرن التاسع عشر، لأن المدرسة الماركسية ترى أن العامل الاقتصادي محرك للتاريخ، والدولة القومية ما هي إلا مرحلة من مراحل التحول التاريخي للعالم إلى الاشتراكية ثم الشيوعية، والبعض يرى في الظروف الاقتصادية للمجتمعات عاملاً قومياً لا يقل أهمية عن بقية العوامل القومية الأخرى كاللغة والدين وغيرهما، بينما ينتقد البعض الآخر الفكر الماركسي على اعتبار أن القومية شكل من أشكال الحكم البرجوازي، حيث ينتقد ساطع الحصري النظرية الماركسية؛ لأنها تهتم بالعامل الاقتصادي وتجعله مسيطراً في تفسير التاريخ على اعتبار أن نشاط الحياة الاقتصادية يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالدولة القومية، وإلى جانب المدرسة الماركسية في تركيزها على العامل الاقتصادي [31] كان هناك آدم سميث الذي كتب في كتابه ثروة الأمم عن النظام الرأسمالي وقيود نظريته لم تؤد إلى اختفاء الدولة القومية.

تشير الأحداث عبر التاريخ والتي أدت إلى ظهور الدول القومية في أوروبا ودول العالم الثالث إلى أن العامل الاقتصادي يمكن اعتباره عنصراً من عناصر القومية، ولكن لا يمكن النظر إليه على اعتباره معياراً أساسيا للقومية.

ثانياً: العوامل الذاتية للقومية

هذه العوامل غير ملموسة أو محسوسة من جانب الباحثين؛ لأنها تتمثل في رغبة الأفراد بالعيش معاً، ودرجة التعاطف في العلاقات بين أفراد الأمة الواحدة، ويذهب فريق من الباحثين أن القوة الحقيقية لا تكمن في العوامل الموضوعية الملموسة مثل اللغة والدين وغيرهما، وإنما تكمن في إرادة وقوة المشاعر القومية التي قد تؤدي إلى تلاحم أو تفكك أمة معينة. وبالتالي فإن العوامل الذاتية لا تقل أهمية عن العوامل الموضوعية.

نخلص مما سبق أن الشعور القومي هو عملية نسبية بين الأمم، فقوته تختلف في بعض الأمم عن الأمم الأخرى أو في فترة الحروب والطوارئ عن فترات أخرى في أمة معينة، ويركز بعض الباحثين على أهمية المشاعر القومية، بينما يركز البعض الآخر على أهمية مبدأ حق تقرير المصير في الدولة القومية[32]

الخلاصة

يتضح مما سبق أن بعض الباحثين يختلفون في أهمية وأولوية العناصر الموضوعية أو المعنوية، فالبعض يعطي أهمية أكبر لعامل اللغة أو الجنس بينما يعطي البعض الآخر أهمية قصوى للتاريخ أو التقاليد .

القومية كمفهوم سياسي أو اجتماعي، قديم قدم وجود الإنسان في مجتمعات متمايزة باللغات، وتحت أسماء مختلفة، وإذا كانت القومية الحديثة أوروبية المنشأ، إذ غلبت على جوانب كثيرة من الحياة الأوروبية، ما جعل بعض المؤرخين أطلق على القرن التاسع عشر سيما في أوروبا بعصر القوميات، فإن هذه الدعوة الجديدة لم تبق أسيرة القارة الأوروبية، بل انتشرت مع الزمن إلى القارات الأخرى، فجاء كفاح دعاة القومية من أجل جمع أبناء جماهير الأمة في دولة واحدة، وخلاصة الأمر أن القومية تظهر بالشكل الذي يريده القوميون لها وقد لا تكون فكرة خالصة ثابتة ،وإنما تجمعات متباينة من العقائد والظروف لها أساليبها الخاصة في الاحتفاظ ببقائها وفي التحول لا إلى مجرد حقيقة، بل إلى أمر واقعي كذلك والحقيقة أن الخيال والواقع والصواب والخطأ عناصر تختلط مع بعضها اختلاطاً شديداً في القومية الحديثة، ولذلك فإن الأسلوب الوحيد لإدراك فحوى القومية هو تحديد العقائد، بغض النظر عن صحتها أو عدم صحتها والظروف المتوفرة فيها.

الهوامش

1 – ابن منظور، لسان العرب، مج 12، بيروت دار صادر (الطبعة الأولى: 2002) ص: 226 : 228.

2 – مجموعة من المؤلفين، قراءات في الفكر القومي، مركز دراسات الوحدة العربية (الطبعة الثانية: 1993) ص: 168.

3 – صالح أحمد العلي وآخرون، تطور الفكر القومي العربي، مركز دراسات الوحدة العربية (الطبعة الأولى: بيروت 1986) ص: 15.

(4) على عباس مراد، عامر حسن فياض، الظاهرة القومية، منشورات جامعة قاريونس (الطبعة الاولى : بنغازى 1998) ص : 26

5 – علي عباس مراد، عامر حسن فياض، الظاهرة القومية، مرجع سبق ذكره، ص: 25.

6 – مالك أبو شهيوة وآخرون، الأيديولوجية والسياسة، مصراتة دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان (الطبعة الأولى: 1993) ص: 310.

7 – سليمان صالح الغويل، الدولة القومية، بنغازي منشورات جامعة قاريونس (الطبعة السابعة: 2002) ص: 22.

8 – المرجع نفسه، ص: 23.

9 – المرجع نفسه، ص: 24.

10 - عبد الله السامرائى، تطور الفكر القومى، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1، 1985 - ص84
11 - المرجع نفسه، ص: 25.
12 - سليمان صالح الغويل، الدولة القومية، مرجع سبق ذكره، ص: 26 : 27.
13 - عبد الله السامرائى ،مصدر سابق، ص92
14 - يويد شنقر، ترجمة عدنان الحميرى ،القومية – عرض وتحليل ، بيروت مكتبة الحياة (ط1، 1966) ص67
15 - المرجع نفسه، ص: 29 : 30
16 - عبد الله السامرائى، مصدر سابق، ص112
17 - المرجع نفسه، ص: 93.
18 - علي محمد شمبش، القومية والوطنية إشكالية التطابق أو الأولوية، مجلة الدراسات العليا، أكاديمية الدراسات العليا والبحوث الاقتصادية (ع 5: طرابلس خريف 1428) ص: 16.
19 - سليمان صالح الغويل، الدولة القومية، مرجع سبق ذكره، ص: 54.
20 - المرجع نفسه، ص: 54 : 55.
21 - المرجع نفسه، ص: 57 - 58.
22 - مجموعة من المؤلفين، قراءات في الفكر القومى، مصدؤ سايق، ص48
23 - سليمان صالح الغويل، الدولة القومية، مرجع سبق ذكره، ص: 59.
24 - المرجع نفسه، ص: 59.
25 - ساطع الحصري، آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، دار العلم للملايين (الطبعة الرابعة: بيروت 1961) ص: 7 : 8.
26 - السيد يسين، تحليل مضمون الفكر القومي العربي، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية (الطبعة الرابعة : 1991) ص : 99
27 - مالك أبو شهيوة وآخرون، الايديولوجية والسياسة، مرجع سبق ذكره، ص: 325 : 327.
28 - انظر: مالك أبو شهيوة وآخرون، الايديولوجية والسياسة، مرجع سبق ذكره، ص: 327 : 329.
29 - على عباس مراد ،وآخرون ،الظاهرة القومية، بنغازي منشورات جامعة قاريونس (1998) ص85
30 - جورج حنا، معنى القومية العربية، بيروت دار التقافة (ط1،2003) ص،21
31 - عبدالكريم احمد، القومية والمذاهب السياسية ، القاهرة الهيئة المصرية للكتاب (ط1،1970) ص86.
32 - محمد عابد الجابرى ،قضايا في الفكر المعاصر ، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية (ط1،1997) ص87

قائمة المصادر والمراجع:-

1_ ابن منظور، لسان العرب، م ج12، بيروت دار صادر، ط1، 2002.

2_ السيد ياسين، تحليل مضمون الفكر القومي العربي، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط4 ،1991.

3_ جورج حنا، معنى القومية العربية، بيروت دار الثقافة، ط1، ، 2003.

4_ سليمان صالح الغويل، الدولة القومية، بنغازي منشورات جامعة قاريونس، ط7، 2002.

5_ ساطع الحصري، أّراء وأحاديث في الوطنية والقومية، بيروت دار العلم للملايين،ط4، 1961.

6_ صالح أحمد العلي وأّخرون، تطور الفكر القومي العربي، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط، 1986.

7_علي محمد شنبش، القومية والوطنية، إشكالية التطابق، مجلة الدراسات العليا، أكاديمية الدراسات العليا، ع5، خريف، 1428.

8_ عبدالله السامرائي، تطور الفكر القومي، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1995.

9_ علي عباس مراد وآّخرون، الظاهرة القومية، بنغازي ليبيا منشورات جامعة قاريونس، ط1، 1998.

10_ عبدالكريم أحمد، القومية والمذاهب السياسية، القاهرة الهيئة المصرية للكتاب، ط1، ، 1970.

11_ مالك أبو شهيوة وآخرون، الأّيديولوجية والسياسة، مصراتة الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ط1، 1993.

12_ محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1997.

13_ مجموعة من المؤلفين، قراءات في الفكر القومي، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، 1993.

14_ يويد شنقر، ترجمة عدنان الحميري، بيروت القومية عرض وتحليل، مكتبة الحياة، ط1، ، 1966.